شبهات حول توحيد الأسماء والصفات

عرض ونقد

أ.د. صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي

أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية

الشيخ لم يراجع التفريغ

شبهات حول توحيد الأسماء والصفات

بسم الله الرحمن الرحيم

شبهات حول توحيد الأسماء والصفات *

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا عبده ورسوله، صلى الله وعليه وعلى آله وأصحابه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعد

فإنَّ الله سبحانه أكبر من كل شيء؛ فالعلم به أكبر من كل علم، والله العظيم الذي هو أعظم من كل شيء؛ فالعلم به أعظم من كل علم، وحاجةُ العباد إلى معرفةِ مولاهم ومحبوبهم ومعبودهم وربهم أعظمُ الحاجات على الإطلاق، بل هي -والله- أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب والنَّفَس؛ فإنَّ معرفة الباري جل في علاه بها تتحقق حياة القلوب، وأمَّا تلك

* ألقيت في مسجد عائشة عبد الله المحري بدولة الكويت بعد صلاة المغرب بتأريخ: ٥ صفر ١٤٣٩ هجري.

الأمور فبها حياة الأبدان، والمسلم بروحه وقلبه لا ببدنه.

ولأجل عظيم حاجة العباد إلى معرفة مولاهم سبحانه فقد بذل ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأعطى ومنح وتكرم، بأن عرَّف عباده بعضًا من أسمائه وصفاته؛ حتى تتحقق العبودية له، وجعل سبحانه في نفوس العباد مَلَكةً تشتد حاجتهم إليها، ألا وهي: «**معرفةُ القدْر المشترك بين الأشياء**»؛ فإن الله سبحانه قد أخبر في كتابه وهكذا نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أخبر في سنته بكثيرٍ مما فيه أسماءٌ لله عَزَّوَجَلَّ وصفات.

ولولا أن العباد قد أعطاهم الله سبحانه هذه الملَكة وهذه الجِبلة -وهي معرفةُ القدْر المشترك- لولا هذه النِّعمة فإنَّ العباد لم يعرفوا شيئًا عن ربهم. ولك -يا رعاك الله- أن تتأمل في الحال الذي سنكون عليه لو قيل لنا: اعبدوا ربًا لا تعرفوا عنه شيئًا، قوموا بواجب المحبة والخوف والرجاء والتوكل وأنتم لا تعرفون عن ربكم شيئًا؛ هل هذا من تكليف ما يُطاق، أو من تكليف ما لا يُطاق؟

لا شك ولا ريب أنه لن تتحقق تلك العبادات إلا أن يعرف العباد شيئًا عن ربهم، ومن خلال ما يعرفون من الأسماء والصفات التي

يُدركونها في المخلوقات أمكنَ أن يعرفوا شيئًا عن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته.

وهذا الذي يُسميه العلماء بـ «معرفة القدْر المشترك»؛ فإنه لما أدركوا من خلال ما يعهدون ويعرفون من اللغة شيئًا عن معنى الرحمة، والمغفرة، والعزة، والغضب، والانتقام، والقُدرة، أمكن حين ذلك أن يعرفوا أن ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ موصوفٌ بتلك الصفات، مع أن القدْر الذي اختص به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا شك أنه قدرٌ عظيم لا يُماثل القدْر الذي عليه المخلوقات، لكن هذا القدْر الذي أدركوه به فهِموا شيئًا عن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته، وعليه فقد عرفوا بعض المعرفة عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فأمكن أن يتوجهوا له بالمحبة والخوف والرجاء، والتوكل، والإنابة، إلى آخر هذه العبادات.

إذًا من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن بيّن في كتابه وهكذا في رسالات رُسله جُملةً من أسمائه وصفاته، وضرب الأمثال لذلك، وضربه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمثال لذلك، كما أنه أعطى هذه النعمة وهي نعمةُ معرفة القدْر المشترك.

ومضى المسلمون على هذا الحق؛ وهو أنه إذا بلغهم الخبر من

خبر الله أو رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيءٍ من أسماء الله وصفاته آمنوا، وسلّموا، وأذعنوا، واعتقدوا أنَّ هذا الذي أخبر الله به حقٌّ لا شك فيه، يُضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ فيكون له من الجلال والإكرام والعظمة ما يليق بالمحل الذي أُضيف إليه. لا يمكن أن يكون ما يوصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مماثلًا به المخلوقات، أنَّى وكيف أن يكون الصانع كالمصنوع! وأن يكون الخالق كالمخلوق! تَعَالَى الله عن ذلك علوّا كبيرا.

مضى المسلمون على هذا، تأتيهم الأخبار فيتلقونها بالتسليم والتصديق؛ وهذا هو أصل الأصول، **أصل الإيمان: التصديق بالله ورسوله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وبخبر الله ورسوله** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ثم إن الشياطين قد اجتالت بعضًا من بني آدم؛ فانحرفوا عن هذا الصراط المستقيم، وهو الإيمان والتصديق بأسماء الله وصفاته على ما يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، فانحرفوا واختلفت بهم الوجهات، وتردّوا في دركات الأهواء والضلال، وعصم الله عَزَّوَجَلَّ من شاء سبحانه ووفقهم إلى لزوم المحجة، وإلى سلوك الجادة؛ وهي أنهم آمنوا بالكتاب كلِّه، وصدَّقوا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسلكوا مسلك الثُّلة الخيِّرة من هذه

الأمة وهم السلف الصالح؛ فهدوا إلى الحق، كان الوحي سبب هدايتهم: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ [سبأ:٥٠].

إذًا افترقت الناس، وتشتتت آراؤهم إلى مذاهب مُختلفة، لكنهم في الجملة يرجعون إلى ثلاث طوائف:

- ❑ **الطائفة الأولى**: أهل التمثيل.
- ❑ **والطائفة الثانية**: أهل التعطيل.
- ❑ **والطائفة الثالثة**: أهل سواء السبيل.

وأهل التعطيل افترقوا إلى ثلاث فِرق:

- إلى أهل تجهيل.
- وإلى أهل تخييل.
- وإلى أهل تأويل.

هذه جُملة مقالات الناس في هذا الباب العظيم؛ باب صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أما أهل سواء السبيل: فإنهم أهل السنة والجماعة؛ عِلموا معاني

الأسماء والصفات من حيثُ أصل المعنى، أدركوا ذلك من خلال لغة العرب التي يفهمون، والتي نزل القرآن بها وجاءت السنة بها، مع اعتقادهم أنَّ الذي أُضيف إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من هذه الصفات شيءٌ يختص به ويليق به، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ﴾ [النحل:٧٤] ، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:٢٢].

إذًا الله عَزَّوَجَلَّ متوحدٌ بأسمائه وصفاته، كما أنه متوحدٌ بذاته، كما أنه متوحدٌ بربوبيته وألوهيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أما أهل التمثيل: فإنهم أولئك الشِّرذمة الضالة التي اعتقدت أن صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مثلُ صفات المخلوقين، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يرحم كرحمة المخلوقين، والله له وجه كوجه المخلوقين، ولله يدٌ كأيدي المخلوقين -تعَالَى الله عن إفكهم علوًا كبيرًا-.

والبلية بهذا المذهب لم تكن بليةً عظيمة كالحال بأهل التعطيل؛ فإن الذين سلكوا هذا المسلك شُذاذٌ وأفرادٌ على مدى التاريخ، وذلك لأن هؤلاء لا شُبهة لهم، هؤلاء ليس لهم شُبهة تخدع الأغمار والجُهال،

بعكس حال أهل التعطيل.

الفرقة الثالثة: هم أهل التعطيل؛ هؤلاء الذين عطَّلوا الله عَزَّوَجَلَّ عن صفاته، فهُم بين من نفى جميع صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وبين من أثبت بعضًا ونفى بعضًا. وهؤلاء -كما ذكرتُ لك- افترقوا إلى فِرقٍ ثلاث:

- **الأولى: فِرقة أهل التخييل؛** وهؤلاء هم الفلاسفة، هؤلاء ليس عندهم شيءٌ من الصفات ثابتٌ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بل الله عَزَّوَجَلَّ لا تُضاف له إلا السلوب، ولا يُضاف له إلا الأمور الإضافية التي ترجع إلى الصفات العدمية، أما أن يُضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ معنى ثبوتي فحاشا وكلا عند هؤلاء؛ ولذا كان جمهورهم وعامتهم على أن الله سبحانه موجود بشرط الإطلاق، يعني: الإطلاق عن كل معنىً ثبوتي. وهذا كما يُدرك العُقلاء لا وجود له إلا في الأذهان، ولا وجود له في الأعيان، وهؤلاء قالوا: إن الذي أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به ورسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما هو إلا شيءٍ من التخييلات التي لا ترجع إلى شيء، مُجرد خيالات أراد بها الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ضبط العامة، وإلا فهؤلاء لا يعترفون بأن وراء هذه النصوص حقائق ترجع إلى معاني ثبوتية.

▪ **أما الفئة الثانية: فهم أهل التأويل** الذين قالوا: إن هذه النصوص حق وثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يُمكن أن تُرد آيات القرآن أو الأحاديث المتواترة، لكن ما المعنى المراد؟ هل هو ما يُفهم في ضوء لغة العرب، وتُجرى هذه النصوص على ظاهرها اللائق بالله عَزَّوَجَلَّ؟ أم لها معاني أخرى بخلاف الظاهر؟ فقالوا: إن لها معانٍ أخرى بخلاف الظاهر؛ فأولوا نصوص الصفات، يقرؤون النصوص التي فيها إثبات الوجه لله، وإثبات المحبة، وإثبات الغضب، وإثبات العين، إلى غير ذلك من نصوص الصفات، لكنها عندهم محمولةٌ على معانٍ أخرى.

▪ **وأما المذهب الثالث: فهو مذهبُ أهل التجهيل**؛ وهؤلاء هم المفوضة، اتفقوا مع الفريق الأول في أمر واختلفوا في أمر، ولذا يقول المُعطلة: (إن مذهب التأويل هو التأويل التفصيلي، وأما التفويض فإنه التأويل الإجمالي).

✍ **هؤلاء اتفقوا مع الأولين** على أن ظاهر النصوص غير مُراد، ولا يجوز أن تُحمل هذه النصوص على ظاهرها، بل لها معنىً آخر بخلاف ظاهرها.

✍ **ولكنهم اختلفوا مع الأولين** في أنهم ما عينوا المراد، قالوا: إن هذه النصوص لها معنى، ولكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم به.

هذه مقالات الناس في صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأود أن أخصص حديثي في هذه الليلة عن فِرقة أهل التعطيل؛ فإنَّ البليةَ بهم عظيمة، وشُبهتهم قد انتشرت في الناس مع الأسف الشديد.

وهذا الذي يجر إلى هذا السؤال، وهو:

❁ لماذا الكلام في هذا الموضوع، لماذا نبحث في هذا الموضوع وهو ما يتعلق بالتعطيل وأهله، وشُبهاتهم؟

والجواب عن هذا أن يُقال: إنَّ الكلام في هذا الباب ليس من التَّرف، وليس من الأمر الثانوي، بل هو أمرٌ يتعين ويتأكد أن يُبين لا سيما في هذا العصر:

✍ **أولًا**: أن هذا من نُصرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد:٧]. الكلام في الله عَزَّوَجَلَّ لا يجوز أن يكون بالباطل، ويجب أن يكون عند المؤمنين غيرةٌ على حق الله سبحانه، ولذا يجب أن ينصروا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن يبينوا الحق، ويردوا على الباطل

وأهله.

✍ **أمرٌ آخر**: وهو القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحمية لدين الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن كلام هؤلاء المُعطلة يرجعُ إلى عدم إقدار الله عَزَّوَجَلَّ حق قدره، وإلى عدم إقدار الأدلة حق قدرها؛ ولا شك أنَّ المنكر كلما فحُش تأكد إنكاره، والخطأ في هذا الباب ليس كالخطأ في غيره، إذًا لابد أن ينهض أهل السنة والجماعة ببيان الحق في هذا المقام العظيم، فإن إنكار ما أخبر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لا شك أنَّه أمرٌ عظيم، ولذا أطبق أهل السنة والجماعة على ما قال نُعيم بن حمادٍ الخُزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ شَبَّهَ اللهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولَهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ تَشْبِيهٌ»(١).

✍ **أمرٌ ثالث**: وهو أنَّ الجهود التي تُبذل في هذه الأيام من قِبل أهل التعطيل شيءٌ كبير، والمتابع لهذه الجهود يُدرك أن هذه الفترة من الزمان تشهدُ نشاطًا غير مسبوق من قِبل أهل التعطيل؛ ثَمة مواقع

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٢٦).

وصــفحات، وثمة كتبٌ ورســـائل ومؤتمرات، وثَمة محاضــرات وكلمات، جهودٌ كبيرة ونشـــاطٌ محموم في ســبيل ترويج هذا الباطل وإطفاء جذوة الحق. ولا شك أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ناصرٌ دينه، وهذا ابتلاءٌ وامتحانٌ لأهل الحق، وواجبٌ عليهم أن ينهضوا ببيان الحق، وأن يُبينوا زيف الباطل.

✍ **ويتبع هذا أمر رابع:** وهو أن عدم الاكتراث أو ضــعف البيان وقِلة التوضــيح لهذا الأمر مع نشــاط أولئك أدى إلى تأثر بعض الأغمار والعامة من أهل الســنة والجماعة، فصــاروا يقولون بمقالات المبطلين، وصاروا متأثرين بهذه المقالات، ربما تسمعُ ممن ليس من هؤلاء في وردٍ ولا صـــدر يتكلم بالتأويلات، ويتكلم بتعطيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن كلامه الواجب له بثبوت هذه الصــفات الجليلة، والســبب هذا التأثر نتيجة هذا التوسع الحاصل اليوم في وسائل التواصل والاتصال؛ فيتعين بعد هذا أن ينهض أهل السنة والجماعة بالصدع بالحق وبيانه وعدم كتمانه.

✍ **وأمرٌ خامس:** وهو أن معرفة حال أولئك مما يدعو المســلم الذي ســلك جادة الحق إلى أن يحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن عافاه من تلك

الأهواء، وأن سلّمه من تلك الشُّبهات، فقال بالحق وثبتَ عليه؛ هذا لا شك أنَّه يتجدد به حمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، كلما رأى الإنسان حالَ أولئك الذين ابتُلوا فإنه يحمد الله، ويُثني عليه، ويمتلئ قلبه ولسانه بشكره جَلَّ وَعَلَا بأن هداه ووفقه إلى الحق:

فاحْمَدْ إلهَكَ أيُّهَا السُّنِّيُّ إذْ   عَافَاكَ مِنْ تَحْرِيفِ ذِي بُهْتَانِ
واللهِ مَا يَرْضَى بِهَذا خَائِفٌ   مِنْ رَبِّهِ أَمسَى عَلَى الإِيمَانِ

هذا الموضوع يمكن أن نُلخص بعض مهماته في رؤوس أقلام:

❁ **الموضوع الأول: ما أسباب وقوع المعطلة في التعطيل؟** لِم ما قالوا بالحق؟ لماذا توقفوا في نصوص الصفات فأولوها وحرفوها وما اعتقدوا موجبها، وما أثبتوها لله عَزَّوَجَلَّ على ما يليق به؟

السبب يرجع إلى أمور:

✍ **أول تلك الأسباب**: أنَّ القوم قد أُصيبوا بمرض التشبيه؛ يا للّه العجب من أُناسٍ إنما أرادوا أن يُنزهوا الله تَعَالَى عن التشبيه، فوقعوا في حمأة التشبيه! والعجيب أنَّهم يرمون مخالفيهم بالتشبيه، وهم أهله وأساطينه.

وبهذا تعلم -يا رعاك الله- أنه ليس كل من قصد التنزيه أصاب التنزيه، المشركون الأولون زعموا أنَّهم يريدون تنزيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فالله أعظم عندهم من أن يُعبد مباشرة، فلابد من اتخاذ وسائط: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]. كذلك قالوا: إن الله أعظم من أن يُنزل كتابًا على رسول: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ﴾ [الأنعام:٩١]، زعموا أنهم يريدون تنزيه الله سبحانه عن ما لا يليق به.

إذًا ليس كل من ادعى التنزيه أو زعم إرادته يُصيبه، لا يُصيب التنزيه إلا من سلم للوحي، إلا من أذعن للكتاب والسنة وقال بموجبهما.

وأذكر لك أمثلةً تدل على أن هؤلاء المعطلة إنما عطلوا لأنه قد وقر في قلوبهم التشبيه، اسمع هذه الأمثلة التي أسوقها لك:

❍ هذا فخر الرازي الذي هو الإمام المُقدم عندهم بلا مُدافعة، ما جاء بعده مثله بل ولا قبله، وهذا مما لا يُنكره أحدٌ من أهل التعطيل، اسمع ماذا يقول في كتابه «تأسيس التقديس» في الصحيفة الخامسة بعد المائة يقول: «**ورد في القرآن ذكر العين، وذكر الجنب الواحد، وذكر**

الأيدي، وذكر الساق الواحدة، فلو أخذنا بالظاهر يلزمنا إثبات شخصٍ له وجهٌ واحد، وعلى ذلك الوجه أعينٌ كثيرة، وله جنبٌ واحد، وله أيدٍ كثيرة، وله ساقٌ واحدة» اسمع الكلام فيما أُضيف إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وما فهِم هذا الإنسان ما أُضيف إلى الله عَزَّوَجَلَّ ، قال: «**ولا نرى في الدنيا شخصًا أقبح صورة من هذه الصورة المتخيلَة، ولا أعتقد أنَّ عاقلًا يرضى بأن يصف ربه بهذه الصفة**». أرأيت من أين أُتي القوم؟ كيف أنه ما وقر في قلبه إلا أن هذا الذي أُضيف إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إنما هو فيه مماثلٌ لما أضيف للمخلوق.

❍ واسمع كلامه في الصحيفة الثالثة والستين بعد المائة من الكتاب السابق؛ قال: «**إن قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] لو حملناه على ظاهره لزِم كون يديه مبسوطتين مثل يد صاحب التشنيج تَعَالَى الله عنه، فثبت أن المراد منه إفاضة النِّعم**»؛ يقول: لو كانت يداه مبسوطتان كانت مثل اليدين المتشنجتين، أرأيت كيف أن القوم ابتُلوا بالتشبيه!

❍ واسمع أيضًا حينما يقول في الصفحة الحادية والسبعين بعد

المائة في حديث الترمذي حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو حديثٌ صحيح وهو حديثٌ طويل فيه أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال لآدم: «**ويداه سبحانه مضمومتان اختر أيهما شئت، فقال: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمينٌ مُباركة، فكان في اليمين آدم وذريته**»(١)، هكذا أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والحديث حديثٌ صحيح، تدري بأي شيءٍ علق الرازي؟ يقول: «**إن ظاهر الخبر الذي رُوِّيناه يدل على أنه** -تَعَالَى الله عن ما قال- **كان يلعب مع آدم** عَلَيْهِٱلسَّلَامُ **كما يلعب الصبيان بعضهم مع بعض حين يقبضون أيديهم على الزوج والفرد، والصبيان إذا فعلوا ذلك ضربهم المُعلم، وأدَّبهم فكيف يُنسب ذلك إلى رب العالمين؟**» فهِم أن الذي أُضيف إلى الله سبحانه إنما هو من جِنس ما يُضاف إلى المخلوق. إذاً من أين أُتي القوم؟ أُتوا من التشبيه.

❍ واسمع إليه يقول عند قوله تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم:٤٢]، وهذا ذكره في الصفحة الثالثة بعد الثمانين والمائة، يقول: «**إن الكشف عن الساق إنما يكون عند الاحتراز عن تلوث الثوب بشيءٍ**

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٦٨) واللفظ له، والبزار (٨٤٧٨).

محذور، وجل إله العالم عنه»؛ القوم مُشبهة حقًا.

❍ ويقول أخيرًا في صحيفة التاسعة والثمانين بعد المائة من هذا الكتاب وهو كتاب مشهور وعُمدة عند القوم؛ يقول عن صفة الضحك الثابتة في السنة بأحاديث صحيحة لله سبحانه: أخبر بهذا أعلم الخلق بالله وهو النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصادق المصدوق، قال الرازي: «**الضحك سنَحٌ يحصل في الوجه مع حصول الفرح في القلب وهو على الله تَعَالَى مُحال**».

يا هذا! هذا الذي تحدثت عنه ليس هو الضحك من حيث هو، فضلًا عن أن يكون الضَّحك الذي ينبغي أن يُضاف إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إنما هذا ضحكُ المخلوق، والخصائص لا تدخل في المعنى الكُلي، وهذا يُدركه جميع العقلاء.

أساسُ البلاء عند القوم -وهو الذي بسببه ضلُّوا- أنهم ما فرقوا بين القدْر المشترك بين الخالق والمخلوق والقدْر المختص؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا أضاف إلى نفسه صفةً من الصفات، **فينبغي أن يُعلم أنَّ النظر إلى هذه الصفة ينبغي أن يكون:**

❑ أولًا: إلى المعنى قبل الإضافة، استواءٌ من حيث هو استواء قبل أن يُضاف إلى الخالق أو يُضاف إلى المخلوق؛ وهذا إنما يُعلم من خلال لغة العرب، فالاستواء من حيث هو لا تعرف العربُ في لغتها أنه إذا عُدي بـ(على) أنه يُراد به إلا العلو والارتفاع على الشيء.

❑ ثم بعد ذلك: تُضاف الصفة إلى الخالق فتكون مُختصةً به، وتُضاف الصفة إلى المخلوق فتكون مُختصةً به.

تأمل يا رعاك الله، الله عَزَّوَجَلَّ قال عن الناس: ﴿لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٣] على ظهور الدواب، تصور معي هيئة الرجل إذا ركب على دابة.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون:٢٨] استواءٌ علوٌ واستقرارٌ وارتفاعٌ على السفينة، هل الهيئتان هل الكيفيتان واحدة؟ كلا، هذا والموصوف واحد، لكن مع اختلاف الحال اختلفت الكيفية.

تأمل في حال استواء الإنسان على سفينة، واستواء سفينة على جبل؛ قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود:٤٤] يعني سفينة نوح،

هل الهيئتان واحدة؟ الكيفية هنا والكيفية هنا واحدة؟ هذا وهذا مخلوق وهذه مخلوقة، فكيف يُظن أن المضاف إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُماثلٌ لما يُضاف إلى المخلوق؟ إذا كانت هيئات العباد وكُنه صفاتهم مُختلفة، فكيف يُظن أن الذي يُضاف إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من جِنس ما يُضاف إلى المخلوق؟

أنت يا رعاك الله إذا تكلمت كيف تتكلم؟ ستتكلم من خلال شفتين ولسان وأسنان، ولهوات، وهواء يدخل إلى آخره، أليس كذلك؟ ألم يتكلم الحجر؟ ألم يتكلم الشجر؟ ألم يُسبح الطعام بين يدي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه؟ هل هذا حق يا إخوتاه، هذا الذي جاء في سنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أهو حق أو هزل؟ والله إنه لحق، وإن من الشجر من كان يُسلِّم على رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإن الجذع كان يحن حنين الإبل، وإن الطعام كان يُسبح بين يدي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه، ووالله إن هذا لحق؛ والسؤال: أكان هذا بلسان ولهوات وأسنان؟ أم كان شيئًا آخر بكيفيةٍ مُستقلة مع الاشتراك في أصل الصِّفة؟

أنت إذا أحببت تُحب من قلبك، أليس كذلك؟ القلب هو محل

المحبة، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أحدٌ جبلٌ يُحبنا ونُحبه» أين قلبُه؟ هل محبته من جِنس محبة الإنسان أم شيءٌ آخر؟ حصل الاشتراك في أصل الصفة، ثم اختلفت الكيفية والكُنه والحقيقة، أليس الأمر كذلك؟

إذًا إذا تفاوت المخلوق مع المخلوق في كيفية الصِّفة، بل ربما المخلوق نفسه في حال دون حال، فكيف يُقال: إن الذي يُضاف إلى الله سبحانه من الضحك والاستواء والمجيء والإتيان، إنه يقتضي التشبيه؟ أو إنه يوهم التشبيه؟ تَعَالَى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

التشبيه ما هو إلا مرضٌ ابتُلي به من ابتُلي به، وما هو إلا هو جزاءٌ وفاق؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس بظلامٍ للعبيد، لو أنهم أذعنوا وسلَّموا للنصوص كما كان من أهل السنة والجماعة فإنهم والله ما وقعوا فيما وقع فيه هؤلاء. هذه الكلمة كلمة (الضَّحك) سمعها أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهل توهموا التشبيه؟ لما سمع أحدُ أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله يضحك، قال: «**أَوَ يَضْحَكُ الرَّبُّ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا**»[1]؛ انظر إلى الفرق بين القلوب

(١) أخرجه ابن ماجة (١٨١)، وأحمد (١٦١٨٧)، والطبراني في الكبير (٤٦٩).

السليمة والقلوب المريضة.

✍ **سببٌ آخر من أسباب وقوع هؤلاء في التعطيل:** ضعف تعظيمهم للنصوص؛ إي والله القوم ما عظَّموا النصوص ولا قدروها حق قدرها، ولا أنزلوها منزلتها، ولا أجلوها وأكرموها واحترموها؛ بل إنهم كانوا يتناولونها بأطراف أصابعهم، إن وافقت أهواءهم لا بأس يأخذونها على محمل الاستشهاد والاعتضاد، لا على محمل التأسيس، وإن خالفت فلا عِبرة بها ولا يلتفتون إليها.

❍ اسمع -يا رعاك الله- قول أحد أساطينهم لأُبيِّن لك مع كل أسف الوجه القبيح الذي تعاملوا به مع النصوص؛ اسمع الإمام المُقدَّم عندهم وهو الآمدي في كتابه «أبكار الأفكار» في الجزء الأول في الصحيفة العاشرة بعد الأربعمائة يقول في معرض الكلام عن ثبوت صفة السمع والبصر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: (**وربما استروح بعض الأصحاب في إثبات السمع والبصر لله تَعَالَى إلى ظواهر واردة في الكتاب والسنة...**) ثم قال: (**وهي غير مُفيدةٍ لليقين، ولا خروج لها عن الظن والتخمين، والتمسك بما هذا شأنه في إثبات الصفات النفسية، وما**

يُطلب فيه اليقين ممتنع).

إنا لله وإنا إليه راجعون! كلام الله، كلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ما هو إلا ضربٌ من الظن والتخمين! هذا قدر النصوص عندهم، أفيُتعجب بعد ذلك من هذا المسلك الرديء الذي سلكوه.

- واسمع أيضًا مقالته في كتابه «غاية المرام» فإنه كرر المقالة نفسها، وقال: «**كل ما يُتحمل من ذلك فغير خارجٍ عن قبيل الظنيات والتخمينات ولا مَدخل له في اليقينيات**»؛ عزلوا وحي رب العالمين عن أن يُفيد العلم واليقين في أهم مطالب الدين، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

- ويقول الرازي في كتابه «معالم أصول الدين» بعد أن ساق عشرة أمور زعم أن الأدلة النقلية مبنيةٌ عليها فتُفيد ظنيتها قال: «**وإذا ثبت هذا ظهر أن الدلائل النقلية ظنية، وأن العقلية قطعية، والظن لا يُعارض العقل**».

- وقال في أوائل كتابه «نهاية العقول»: «**فخرج مما ذكرنا أن الأدلة النقلية لا يجوز التمسُّك بها في المسائل العلمية**». والنبي

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول كما أخبر الله عنه: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ:٥٠]، والله لا سبيل إلى الهداية إلا من طريق الوحي من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعند هؤلاء لا يُمكن أن تروم الهداية من الوحي، الوحي ظن وتخمين، ولا يُفيد قطعًا، إذًا من أين أُفيد الحق في هذا الباب؟ تُفيده من عقلك، العقل هو الدليل القطعي فلا نتمسك بآية أو حديث، هذه ننظر إليها باحتياط وتحرُّز، إن وافقت ما نهوى لا بأس أخذناها معتضدين، وإن خالفت فإنها تُرد عند هؤلاء مع كل أسف.

✍ **أيضًا من أسبابهم وقوعهم فيما وقعوا فيه:** أنهم تلقوا عقائدهم من غير الكتاب والسنة؛ لما كانت نظرتهم إلى الكتاب والسنة بالحال التي سمعت ذهبوا يتلقفون عقائدهم من غير الكتاب والسنة، ولا رفعوا رأسًا بنهج السلف الصالح، فقعَّدوا قواعد والتزموا بها؛ فقالوا بمسائل كُبرى أثمرت ذلك المسلك الرديء مسلك التعطيل، فقالوا بدليل حدوث الأجسام، قالوا بقاعدةٍ كبيرة هي: أن أخبار الآحاد ظنية، قالوا بأن الأدلة النقلية ظنية الدلالة، قالوا بأن العقل هو الدليل القطعي ؛ في قواعد كُبرى التزموها فأثمرت هذا المذهب، وهو مذهب التعطيل،

والسبب: أنهم خرجوا عن المعين الصافي الذي يُثمر الهداية، لا يمكن أن يكون ذلك إلا من الكتاب والسنة:

فَخُذِ الهُدَى مِنْ عَبْدِهِ وَكِتَابِهِ   فَهُمَا إِلَى سُبُلِ الهُدَى سَبَبَانِ

✍ **أيضًا من أسباب وقوعهم في هذا المسلك المردي**: أنهم عظَّموا العقل ورفعوه فوق درجته، وجعلوه حاكمًا خارج مملكته، فوقعوا في سقطةٍ كبيرة أورثتهم انحرافًا عظيمًا، العقل لا يمتري عاقلٌ أنه يُسلم بأنه تابعٌ والنقل متبوع.

العقل متولٍّ؛ ولَّى النقل ثم عزل نفسه، أرشد إلى الحق إلى ثبوت الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وألوهيته وصدق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورسالته، وهو دليل من جملة أدلة ليس الدليل الوحيد، ثم بعد ذلك عزل نفسه، فصار في منزلة التابع، والنقل الوحي هو المتبوع.

العقل محدود لا يُمكن أن يخرج عن حدود المحسوس؛ وبالتالي فإن قُدراته لا تسمح له بأن يتكلم فيما خرج عن ما أحسه، والكلام في هذه المطالب الإلهية كلام عن الله العظيم، والله لم نره، ولم نر مثيلًا له، تَعَالَى الله أن يكون له مثيل.

إذًا هذه المباحث مباحث خبرية لا يجوز أن يُطلب الحق فيها من غير الخبر الصادق من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وعليه: فالعقل عُرضةٌ للخطأ، وما أكثرَ ما قال عاقلٌ بعقله ثم اكتشف بعد حين أنه قد أخطأ، أما الوحي فإنه معصوم؛ إنه تنزيل من العليم الخبير الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ إذًا يتعين في صريح العقل أن يُقبَل على الوحي، ويُستمسَك بما جاء به، مع أن العقل بحمد الله وفضله لا يُخالف شيئًا من النقل، فهو إما موافق وإما متوقف، إما يشهد بصحة ما جاء في النصوص أو يقف لعجزه، فالشريعة لا تأتي بمحالات العقول، لكن قد تأتي بمحارات العقول، أشياء يعجز العقل عن إدراكها لأنها أكبر منه وأوسع منه.

فالعقل لا ينبغي المبالغة فيه يا إخوتاه. أنتم جميعًا أهل عقولٍ راجحة -ولله الحمد- أسألكم: ما الذي في جيبي على وجه التفصيل والتحديد؟ ألستم أهل عقول! أجيبوا، وأنا أقف أمامكم وتروني، هل يمكن أن تُجيب عن هذا السؤال بعقلك؟ جرب لنجلس من هذه الساعة إلى الفجر ما رأيكم أنا مُستعد، واجتهدوا ربما تصلون، أو لا؟

لا يمكن، إن لم أُخبر أو يقوم واحد منكم وأُحذره فيأخذ ما في جيبي ممكن يعرف، أما بالعقل المجرد لا يمكن، لِم ما السبب؟ أن هذا خارجٌ عن حدود العقل، العقل هنا يقول: أنا أستسلم أنا لا يمكن هذا خارج حدودي، لا يمكن أن أتكلم في هذا الموضوع، هذا موضوعٌ خبري يُخبر عنه.

إذًا **المشكلة** التي وقع فيها هؤلاء وهي مشكلة منهجية: أنهم بالغوا في موضوع العقل حتى جعلوه حاكمًا خارج سلطانه، **وكانت النتيجة**: أن فسدت عقولهم. سبحان الله العظيم! وكأن هذه سُنةٌ كونية لا يعصي الله أحدٌ بشيء إلا أفسده عليه؛ هؤلاء لما تجاسروا على النصوص، وخالفوها، وما رفعوا رأسًا بها، وظنوا أن عقولهم يُمكن أن تُدرك الحق بتفاصيله باستغناءٍ عن الوحي فسدت عقولهم؛ ولذا من تتبع مقالاتهم أدرك والله أنهم أتوا بما يُضحك العقلاء على عقولهم، وحرِّك ترَى.

✍ **أمرٌ خامس يُلخص كل ما سبق:** القوم إنما أُتوا بسبب كبرٍ في نفوسهم، وهذه سنةٌ مضطردة في كل من عاند الوحي واستكبر عنه، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ

إِلَّا كِبْرٌ﴾ [غافر:٥٦]، أُتوا من جهة هذا الكبر الذي في نفوسهم؛ فما ذلوا وما أذعنوا، وما سلموا للنصوص، فوقعوا فيما وقعوا فيه. نسأل الله السلامة والعافية.

❁ أنتقل بعد ذلك إلى موضــوع آخر وهو: سِــمات المعطلة التي اتسموا بها:

✍ **أول تلك السـمات: أنهم مُشبِّهة؛** والعجيب: أنهم يلمزون أهل السنة ويطعنون عليهم بأنهم مُشبهة، ودائمًا يُكررون هذا الأمر، حتى إن السُّنة المتبعة عندهم إذا أرادوا أن يصفوا أهل السنة يقولون: المجسمة، مُشبهة، حشوية.

ومن الغريب المؤسف أن الزمخشري في «**تفسيره**» شنَّع على أهل السنة والجماعة بكلامٍ قبيح، وهذا سيأتي التنبيه عليه وهو أن من سماتهم تشنيعهم بالباطل على مخالفيهم من أهل السنة، يقول في «**تفسيره**»:

لَجَمَاعَـةٌ سَـمَّوا هَـوَاهُمْ سُـنَّةً ... وَجَمَـاعَـةٌ حُمُرٌ لَعَمْرِي مُوكَفَـةْ

يقول: هؤلاء الذين سموا هواهم سنةً وجماعة، يسمون أنفسهم بأهل السنة والجماعة، وصفهم بأنهم حمرٌ يعني حمير.

قَـدْ شَـبَّهُوهُ بِخَلْقِـهِ وَتَخَوَّفُـوا　　　شُـنَعَ الوَرَى فَتَسَـتَّروا بِالْبَلْكَفَةْ

يعني يقول: هؤلاء مشبهة لكن حتى لا يفتضحوا عند الناس إنهم يثبتون الصفات ثم يقولون: بلا كيف، البلكفة: كلمة منحوتة من (بلا كيف)، فانظر إلى هذا المستوى: (حُمرٌ لعمري موكفة) يعني: عليها الإكاف التي مثل البردَعة.

لكن أهل السنة أجابوا على كلامه وبينوا خطأه، قال أحدهم:

يا عائبًا من جهله للبلكفة　　　هي قولكم في الذات دع عنك الصفه

والله ليس كمثله أحدٌ وذا　　　ما لست تُنكره فدع عنك السَّفه

يعني الذي ترمي به أهل السنة من أنهم يقولون: بلا كيف، هو قولكم نفسه في الذات، فالقول في الصفات كالقول في الذات ولا فرْق، هذه قضية غيبية وهذه قضية غيبية، هذه قضية خبرية وهذه قضية خبرية، إذاً ما الفرق؟

وآخر يقول:

ومبلكفٌ للذات طال تعجبي　　　من شدة استنكاره للبلكفة

إن كنت تُنكرها فكِّيف ذاته　　　أيضًا وقل هي كالذوات مُكيَّفة

بـل أنـت تُثبتهـا ولا تـدري كما لم تدرِ قط من الحمير الموكفة
ولقد هجوتَ وما دللتَ، وإنما أبـدًا تـدل على الحمـير العجرفَـة

✍ **أيضًا من سماتهم: تشنيعهم على مُخالفيهم** كما أسلفت؛ وهذا ديدنهم وهذه سـنتهم في القديم والحديث، ليس عندهم إلا التشـنيع والذم والرمي بأشنع الألفاظ؛ يصِفون الحق بأشنع الألفاظ حتى يغتر الناس بهذا التشـنيع فينصـرفوا عنه، كذلك يُشـنعون على أهل الحق.

وليس يخفى عليك -يا رعاك الله- أن الحق لا يمكن أن يختل أو يتزعزع بمثل ذلك:

والحَقُّ رُكْـنٌ لَا يَقُـومُ لِهَـدِّهِ أَحَدٌ وَلَـوْ جُمِعَـتْ لَهُ الثَّقَـلَانِ

✍ **السـمة الثالثة لهم: تناقضـهم؛** التناقض سِـمة لازمة للمعطلة، فإنهم يُقررون الشـيء ويُخالفونه في آنٍ واحد، يقولون بالشـيء وبضـده معًا، وهذا له أمثلة كثيرة:

خـذ مثلًا موقفهم ومنهجهم العـام من نصـوص الوحي مـا قـد سـمعت، لكن العجيب أن كثيرًا منهم تجده يضـطر في مواضـع إلى أن يستدل بالنقل، بخلاف قاعدة المذهب التي هم عليها، وهذا تناقضٌ في

المنهج.

الرازي -ذكرته قبل قليل- من أشد الناس تشنيعًا على الأخذ بالنصوص، لكنه في مواضع أُلجِم، ولا سيما في مواضع يختلفون فيها، تجد مثلًا أن هؤلاء إذا تحيروا في بعض شُبَه المعتزلة كما يقول بعض الفُضلاء: "يرجعون سلفيين"، فلا يجدون إلا النص.

❍ لذلك انظر إلى هذا المثال: النسفي في «**تبصرة الأدلة**» الجزء الأول في الصحيفة الأولى بعد المائتين يقول: «**فالله تَعَالَى أثبت لنفسه العلم والقوة، والمُعتزلة يأبون ذلك، فإذًا هم على زعمهم أعلم بالله من الله تَعَالَى بنفسه، وهذا مما لا يخفى فساده**».

وأنا أقول: يا الله العجب! الله الذي أخبر عن نفسه بالعلم والقُدرة هو الذي أخبر عن نفسه بالاستواء، والعلو وأنه في السماء، وأنه يأتي ويجيء إذا شاء، ونبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أنه ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة في نصوص كثيرة، فما ميزة هاتين الصفتين عن تلك؟ لماذا هذه أصبحت مُثبتة وتلك لا؟ أليس هذا من التناقض؟!

❍ **من تناقضهم: أنهم يثبتون بعض الصفات وينفرون عن إثبات**

بعض، مع أن الذي أثبتوه يلزمهم فيه مثل الذي قالوا فيما نفوا عنه ولا فرق، والقول في بعض الصفات كالقول في بعض.

❍ **أيضًا من تناقضهم: أنهم يُثبتون صفاتٍ ويؤولون أُخرى،** ويلزمهم في المعنى الذي أوَّلوا إليه نظير ما يلزمهم في المعنى الذي فرِّوا منه. خُذ مثلًا: لماذا ينفون صفة الاستواء عن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؟ يقولون: إنها تقتضي التشبيه، فلا يستوي إلا مخلوق، هكذا يقولون. طيب إلى أي شيءٍ أولوا الاستواء؟ قالوا: الاستواء هو الاستيلاء، ما الدليل؟ قالوا: الدليل قول الشاعر، لو جئتهم بحديث في «**الصحيحين**» قالوا: أخبار آحاد، ظن وتخمين، لكن أتوا بهذا البيت الذي لا يُعرف له إسناد ولو كان مُسلسلًا بالوضاعين، نحن نقبل بإسناد مسلسلٍ بالوضاعين، لكن على كل حال يقولون:

قَدْ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى العِرَاقِ مِن غَيرِ سَيفٍ ودَمٍ مُهْرَاقِ

إذًا نقول: (استوى) يعني استولى، لأن اللغة جاء فيها: (قد استوى) يعني (قد استولى بشرٌ على العراق).

يا قوم! إذا كان الاستواء تشبيهًا فالاستيلاء تشبيه، أنتم بلسانكم

تقولون: قد اســتوى مَن؟ بِشْــرٌ، أنتم تنســبون الاســتيلاء إلى من؟ إلى مخلوق، إذًا عندكم أن الله يســتولي كبِشْــرٍ، إذاً ماذا صــنعتم؟ فررتم من تشبيه فوقعتم في تشبيه.

ولذلك أنا أقول: القوم مُشــبهة ثلاث مرات، إذا كانوا يتهمون أهل الســنة بالتشــبيه مرة، فهم مُشــبهون ثلاث مرات: شــبَّهوا، ثم شــبَّهوا، ثم شبَّهوا.

❖ شــبَّهوا أولًا فألجأهم ذلك إلى التعطيل؛ وقر التشــبيه في قلوبهم فأرادوا دفعه بالتعطيل.

❖ فلما عطّلَوا كانوا مُشــبهين؛ لأن كل معنىً أوَّلوا إليه يلزمهم فيه التشبيه على قاعدتهم. القوم فروا مثلًا من إثبات الكلام لله عَزَّوَجَلَّ بحرفٍ وصوت، كما دلت على هذا الأدلة الكثيرة وكما أجمع السلف الصالح، كلام الله عَزَّوَجَلَّ كلامٌ لائقٌ به بحرفٍ وصــوت، لكن يقولون: لا، هذا لا يكون إلا من مخلوق، طيب ماذا نصــنع بهذه الأدلة؟ يقولون: الأمر سهل، نؤول هذا الكلام بالكلام النفسي، طيب ما الدليل؟ يقولون: قول الشاعر، رجعنا مرة أخرى:

إِنّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا ... جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلًا

يا جماعة! إذا كان الكلام بحرفٍ وصوت يستلزم لسانًا وأسنانًا وشفتين، فالكلام النفسي يستلزم قلبًا، بلسانكم، ألستم تقولون: (إن الكلام لفي الفؤاد)، إذًا الكلام النفسي يقتضي التشبيه، إذًا ماذا صنعتم؟ فررتم من تشبيه فوقعتم في تشبيه، وما استفدتم إلا انتهاك حُرمة النصوص.

❖ ثم شبَّهوا ثالثًا: كل تأويلٍ سلكه هؤلاء المعطلة يؤول إلى تشبيه الله -تَعَالَى الله عن قولهم- إما بجامد، وإما بناقص، وإما بمعدوم، وإما بممتنع. واعتبر هذا في كل الذي عطلوه من الصفات، لا يخلو أمرهم عن التشبيه بهذه الأمور الأربعة: إما جامد أو ناقص، أو معدوم أو ممتنع.

إذًا القوم مُشبهة ثلاث مرات: شبهوا، ثم شبهوا، ثم شبهوا.

۞ أيضًا من سمات القوم: أن النصوص عندهم كالصائل؛

الصائل عند الفقهاء يُدفع بأي وسيلة، إن مما يؤسَف له أن النصوص عند هؤلاء أضحت كالصائل الذي يُدفع بأي وسيلة، بأي وسيلة المهم

ألا يثبت لله عَزَّوَجَلَّ ما أضاف إلى نفسه من الصفات.

ولذلك تأمل معي هنا إلى هذا المثال عند الرازي في كتابه «**التأسيس**» في صحيفة ثمان وخمسين ومائة، لما ذكر حديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو في «**الصحيحين**» وغيرهما من رواية جماعةٍ من الصحابة: «**إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ ربَّكُم لَيْسَ بِأَعْوَرَ**»(١)، يقول: (**هذا الحديث مُشكل، لأن ظاهره يقتضي أنه أظهر الفرق بين الإله تَعَالَى والدجال بأنه أعور، والله ليس بأعور**) قال: (**وذلك بعيد**)، قال: (**وخبر الواحد إذا بلغ هذه الدرجة في ضعف المعنى وجب أن يُعتقد أن الكلام كان مسبوقًا بمقدمة لو ذُكرت لزال الإشكال**)، ثم قال الرازي: «**أليس راوي الحديث هو ابن عُمر؟**»، انظر كيف يطعن في ابن عمر حتى يسلم له التعطيل! قال: «**أليس راوي هذا الحديث هوابن عمر؟**» ثم أورد أن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا استدركت عليه في حديث: «**إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ**»(٢)، مع أن الحق في هذا مع ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا. قال: «**إذاً**

(١) أخرجه البخاري (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٨) ومسلم (٩٢٩).

فهكذا هُنا»؛ ابن عمر صعب أن نقبل منه هذا الحديث.

دعك من هذا المثال واسمع ما سأُخبرك به، فإنه والله مؤسفٌ جدًا أن يصدر من أُناس يزعمون أنهم من أهل السنة، بل يا ليت أنهم يقولون: أنهم من أهل السنة، بل يقولون: إنهم أهل السنة، هم أهل السنة، أهل السنة إذن يُعظمون السنة ويعظمون حملة السنة، لكن تأمل في هذه الصورة التي أذكرها لك وهذا المثال الذي أحكيه لك، لتعلم مدى اعتصامهم واحتجاجهم وتقديرهم للسنة.

يقول في صحيفة ستة عشرة ومائتين من ذاك الكتاب الذي هو «**تأسيس التقديس**»: (**والعجب من الحشوية أنهم يقولون: الاشتغال بتأويل الآيات المتشابهة غير جائز، لأن تعيين ذلك التأويل مظنون، والقول بالظن في القرآن لا يجوز، ثم إنهم يتكلمون في ذات الله تَعَالَى وصفاته بأخبار الآحاد**)، يعني كلامهم الآن جعلوه بمثابة ماذا؟ كيف لا تقبلون منا أن نؤول هذه النصوص وأنتم تقولون بأخبار الآحاد!! تدري معنى أخبار الآحاد؟ يعني أحاديث صحيحة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صار كلامهم بهذه المثابة. ثم يقول: «**مع أنها في غاية البُعد عن القطع**

واليقين» يعني ليســت فقط لا تُفيد اليقين، بل في غاية البُعد عن القطع واليقين. قال: «**وإذا لم يجوزوا تفســير ألفاظ القرآن بالطريق المظنون فلأن يمتنعوا عن الكلام في ذات الحق تَعَالَى وفي صفاته بمجرد الروايات الضعيفة وهذا أولى**» يقول: أولى.

ثم قال: «**إن أجلّ طبقات الرواة قدرًا وأعلاهم منصــبًا الصــحابة** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ**، ثم إنا نعلم أن رواياتهم لا تُفيد القطع واليقين، والدليل عليه: أن هؤلاء المحدثين رووا عنهم أن كل واحدٍ منهم طعن في الآخر ونسبه إلى ما لا ينبغي**»؛ يقول: الصــحابة ليس لهم شُــغل إلا أن يطعنوا في بعضهم، انظر إلى هذه الفِرية الكبرى.

طيب ما الذي يترتب على هذا؟ ســاق جملة؛ عائشــة اســتدركت على ابن عمر، ابن عباس استدرك على فلان، عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال في خالد حصل بينهم ما حصل في كلام نقله بعضه صحيح وله محمل، وبعضه غير صـحيح أصـلًا، لكن ما الخلاصـة التي خلص إليها؟ قال: «**إلا أننا قلنا: إن الله تَعَالَى أثنى على الصــحابة** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ **في القرآن على ســبيل العموم، وذلك يُفيد ظن الصــدق**» يعني غاية الأمر أن نظن ظنًا صــدق

الصحابة.

قال: «**ولهذا الترجيح قبلنا روايتهم في فروع الشريعة، أما الكلام في ذات الله وصفاته فكيف يُمكن بناؤه على هذه الروايات الضعيفة**»؛ هذا كلام من؟ كلام إمامٍ مُقدمٍ عندهم في روايات أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا الأمر لا يعدو أن يكون عند القوم أن هذه النصوص إنما تُدفع بأي وسيلة كانت.

خِتامًا: أريد أن أذكر جوابًا سهلًا ويسيرًا وقويًا في آنٍ واحد على أي تعطيل يُعطله هؤلاء المعطلة في صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو:

✍ أن يقال لهذا الذي يُعطل الصفات من طريق التأويل: هل هذا الذي ذكرت من أن معنى استوى استولى؟ وأن معنى الوجه هو الذات؟ وأن معنى الرحمة إرادة الإنعام؟ إلى آخر ما يُعطلون وما يخوضون، هل هذا كان مما يعلمه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أم لا؟ فإن قال: لا فقد قولًا عظيمًا، لأنه يزعم حينها أنه أعلم بالله من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا تكذيبٌ لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو كفر، فليس له إلا أن يقول:

إنه كان يعلم.

✍ فيأتي سؤالٌ آخر: وهو هل كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ذا قُدرة على الفصاحة والبيان، فيُمكن أن يُعبر بما عبرتم، أم لا؟ إن قلتم: لا. قدحتم في النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ، بل قدحتم في حكمة الله حيث أرسل رسولًا لا يُبيِّن -تَعَالَى الله عن ذلك- وحاشا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ. فإن كان مؤمنًا لم يكن أمامه إلا أن يُسلم، لأنه يقدر أن يقول: الوجه هو: الذات، الاستواء: هو الاستيلاء، العين هي: البصر.

✍ ثم نسأله سؤالًا ثالثًا فنقول: هل كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ صاحب رحمة وشفقة ورأفة بهذه الأمة، يُريد لها الخير أم لا؟ إن قلت: لا، فقد كذبت قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة].

إذًا إذا ثبت في النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن له كمال العلم وكمال الفصاحة وكمال الشفقة والرأفة، ما الذي منع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يُبين أن الحق في هذه النصوص ما قلتم؟ بل كان ليل نهار يُحدِّث أصحابه بما ظاهره التشبيه الذي هو الكفر عندكم، هل هذا كان من جهل؟ أم كان من عدم

فصاحته؟ أم كان من عدم رحمته؟ حاشاه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد جمع هذه الأسئلة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أبيات حسنة قال فيها:

فَسَلِ المُعطِّلَ عَنْ ثلَاثِ مَسَائِلٍ — تَقْضي عَلَى التعْطِيلِ بالبُطْلانِ

مَاذَا تقُول أكَانَ يَعْرِفُ ربَّهُ — هَذَا الرَّسُولُ حَقِيقَةَ العِرْفَانِ

أَمْ لَا؟ وَهَلْ حَازَ البلاغَةَ كلَّهَا — فاللفْظُ والمعْنَى لَهُ طَوْعَانِ

أَمْ لَا؟ وَهَلْ كَانَتْ نَصِيحتُهُ لَنَا — كُلَّ النصِيحَةِ لَيْسَ بالخَوَّانِ

فإذَا انْتهَتْ هَذِي الثلَاثَةُ فِيهِ كَا — مِلَةً مبرَّأَةً مِنَ النُقْصَانِ

فَلأَيِّ شَيءٍ عَاشَ فِينَا كَاتِمًا — لِلنَّفْيِ والتَّعْطِيلِ فِي الأَزْمَانِ

ولأَيِّ شَيءٍ لَم يُصَرِّحْ بالَّذِي — صَرَّحْتُمُ فِي رَبِّنَا الرَّحْمنِ

أَلِعَجْزِهِ عَنْ ذَاكَ أَمْ تَقْصِيرِهِ — فِي النُّصْحِ أَمْ لِخَفَاءِ هَذَا الشَّانِ

حَاشَاهُ بَلْ ذَا وَصْفُكُم يَا أُمَّةَ — التَّعْطِيلِ لَا المبْعُوثِ بالقُرْآنِ

أسأل الله عَزَّوَجَلَّ لي ولكم التوفيق والسداد، والهداية والرشاد، وأن يُعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ومن مُضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن، والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.